

يعبر الشعر ولا التفت

لم أستطع أن أمير الشعر حينما عبر أمامي مسرعا إلى الجهة المقابلة من الشارع، ما كنت لأنتبه، ولولا ما قاله صديقي: احذر ! لقد سقطت الدهشة من جيبك، وكدت تدوس عليها، لما كنت الآن أجمع نوافذ العالم، وأدعه يتنفس هواء نقيا، طالما لا يزال مسرعا في الجهة المقابلة للشارع.

في منزلي لا يجرب خطواته إلا على أطراف أصابعي، زوجتي تنظر فلا تميز بين رعشة مرضي ولهاه. هي تجلب لي الماء مسرعة، وأنا أضع على كل أصبع كلمة كلمة، فيهدأ لهاه ثم ينام.

أحيانا أنظر إلى عينيه الواسعتين فيما هو يتحدث بصوت مرتفع عبر موبايله مع صديقه الشاعر، فأقول متتعجاً: لماذا لا أسمع من صوته إلا همممة؟!

وكلما أحدق أكثر يختفي الصوت تماماً. لاحقاً عندما كنت أنطف عربات قصائدي من الغبار المتراكم، رأيته مختبئاً في إحداها، فعرفت السبب من نبرة الصوت.

أحياناً أخرى يطردني من البيت، في ساعة متأخرة من ليل شديد البرودة، ويغلق دوني الأبواب والنوافذ، ثم يطل علي من سور السطح، ليروي لي حلماً واحداً، انتزعه عنوة من نومي، ويقول لي: في داخله خريطة سرية توصلك إلى نومك ثانية، لا تحتاج فيها إلى باب بيتك ولا نافذتك. أكاد أصل، لو لا أنني أستيقظ على منبه ساعتي عند السادسة صباحاً.

لم يذرف دموعه بين ذراعي إلا مرة واحدة في حياته، فقد كان يتحاشى أن أراه كذلك، وذلك حين أصر أن يفتح الباب بنفسه، بعد طرقات ملحة وسريعة، ليتفاجأ بشاعر مجنون قد بتر إحدى ساقيه أثناء هروبها من فتحة ضيقة لمستشفى الأمراض العقلية، وعندما عاد مهرولا فرعاً، قلت: لا ترجع ! إنها إحدى قصائدي العامودية التي أودعتها هناك منذ مدة.

نادرًا ما يطلب مني أن أدعه يسافر إلى بلدان بعيدة برفقة أيامه، وإن طلب، لا أستطيع الرفض. لا أنا قشه في وجهته، ولا في طريقة استعداده، ولا في الاحتياجات الازمة. فقط أحرص على أن يأخذ معه صندوقاً صغيراً جمعت فيه لعنات العالم، وأوصيته:

إذا لم تر الشجرة تنحنى على طلالها من نقل نمارها ، افتحه..

إذا وهبت نفسك لشاعر أعجبك من أول نظرة، ولم يقطع حبل سرته في حياته الماضية، افتحه..

«إذا رأيت نيوپ الليث بارزة» وطننت أن صاحبك جاء ليطوقك بذراعيه، ويرحب بك، افتحه..

إذا رأوك قرب صخرة أرواحهم، ممسكا بإزميل الكلام، كي تنح حنجرة لها، ولم يلتفتوا ولم يساعدوك، افتحه..

إذا انفصلت أيا مي عنك وغابت عن ناظريك لسبب ما ، لا تخبر صرتني، لأن صداحاها سيخطر على باله أن يسمعني موسيقاي التي أعشفها ، فأكتب قصيدة للأمل بدل الصياغ.

لم تعرف الذكريات - يوما ما - طريقا إلى رأسه، كم مرة كانت تشكو لي من سوء معاملته، لأنها لا يرى من جدو لها ، فهي تحتل حيزا من تفكيره بلا طائل، حاول مرة أن يصنع منها جناحين ويهديهما إلى قطة، كان يرعاها ويحنو عليها، ويقول: ربما إذا استطاعت الطيران بإمكانها أن تقول الشعر، وهي تعلو بعيدا عن البشر.

لم يفلح الأمر، خدوش بسيطة تحولت في نظر العابرين إلى قصيدة استهزاء وتندر، ما أحال قلبه إلى حرف معتل لا يشفى ولا يموت.

لكنه - ذات يوم - أخذني بيدي إلى مقبرة أجداده، ولم يكن ينبع بكلمة واحدة، كان فقط يتمتم بشفتيه، وكلما مر بجانب قبر ينفتح له، ويخرج صرة منها، فعل ذلك مع جميع من في المقبرة، وعندما انتهى، وضعها جميعاً أمامي، ثم أخذ نفسها قليلا، وقال: هذا هو إرثي، أتركه لك، توزعه على أيامك بالتتساوي، قال ذلك ثم اختفى.